الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

■■ شاع مصطلح الإعجاز في بداية الجيل الثالث على ألسنة العلماء والباحثين ، وهو نوع من تخصص الدلالة في الألفاظ الإسلامية ، وقبله كان يطلق على معنى الإعجاز لفظة (آية) ، فالقرآن الكريم آية من آيات الله إلى نبيه محمد ﷺ ، والمعجزات التي أُيِّد بها النبيون من قبل هي آيات بيِّنات ..

ومع أنَّ أبحاثاً كثيرة ودراسات قد ظهرت محاولة تحقيق مفهوم الإعجاز ، فإن الإعجاز البياني - الذي يعتبره كثير من الأساتذة والعلماء المرادَ بإعجاز القرآن - لم يحظ بدراسات الأقدمين أو المحدثين بصورة كبيرة .

وحول هذا الإعجاز في القرآن الكريم ألقى الدكتور عبد الصبور شاهين أستاذ الدراسات اللغوية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، والأستاذ الزائر بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر محاضرة بعنوان [الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم] وذلك في إطار الموسم الثقافي السابع الذي تقيمه رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر : ■■

قال الدكتور عبد الصبور :

تُنوولَ الإعجاز القرآني من جوانب مختلفة ، أشهرها الإعجاز البلاغي ، وأحدثها الإعجاز العلمي ، وبين هذين البعدين ظهرت بحوث تحقق مفهوم الإعجاز : كالإعجاز الاقتصادي ، والإعجاز القانوني ، والاعجاز التشريعي ، والإعجاز الاجتماعي .. وكان الإعجاز البياني هو مناط التحدي الموجه من القرآن إلى معارضيه عندما يقول القرآن :

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ (البقرة : ٢٣) ، أو :

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (هود : ١٣) ، ثم يأتي الحكم القاطع الخاتم :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

محاولات على الطريق :

ثم اشار إلى محاولة الأستاذ محمود محمد شاكر في مقدمته لكتاب الأستاذ مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية) وقوله : إن وجهة الإعجاز التي يؤكدها القرآن دائماً هي البيان ، وإن كل الذين بحثوا عن جانب البيان لم يصلوا إلى شيء ، لا الباقلاني ، ولا عبد القاهر الجرجانيّ ، ولا من لف لفهما من الائمة والباحثين ، كل هؤلاء قاربوا ولم يمسوا ، حاولوا ولم يتحققوا ، وإنما تشاغلوا بامور أخرىٰ لا تتصل بالبيان ..

ويعلق المحاضر على ذلك بقوله : كثيرون ممن قراوا هذه المقدمة يعجبون بها لما طرحته من احكام جريئة على السلف من العلماء ، ولكنهم يعجبون منها لان الأستاذ شاكر لم يقدم حلاً للمشكلة ، ولم يطرح مفهوم البيان الذي يقصده ويرىٰ ان السلف اخطؤوه حينما حاولوا الوصول إليه .. ونتوقع منه ان يحاول إنجاز ما تمناه في حياته ..

وينتقل إلى عرض محاولة الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله في دراسة الصورة البيانية بشكل عام محاولة منه لإدراك مفهوم البيان في آيات القرآن ، فلم يقصر بحثه على صورة التشبيه عندما يتكون من مشبه ومشبه به ، واداة تشبيه ، ووجه شبه ، لكنه عمد إلى الصورة الشاملة ، يحاول أن يستوحي منها تجسيد هذه الصورة من كلمات القرآن ومن وسائله التعبيرية .. فقدم (التصوير الفني في القرآن) ، وضمّن كتابيه (مشاهد القيامة) و (في ظلال القرآن) صوراً شاملة ولا سيما فيما يتعلق بتصوير الجانب الاخروي .

اما الكاتب الإسلامي مصطفى صادق الرافعي في كتابه عن الإعجاز القرآني والبلاغة النبوية فيتحدث عن اسلوب القرآن فيقول : (... إنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ، ليس من ذلك شيء إلاَّ وهو معجز ، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة ، واعتقلهم عن الكلام فيه ، وضربهم بالحجة من أنفسهم ، ثم هو الذي مثل لهم الياس قائماً لا يتّصل به الطمع ، وصوّر لهم العجز غالباً لا تنال منه القدرة ، وهذا يتبين من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها ، وكلماته في جملها ، ونسق هذه الجمل في جملته ، وما أذهل العرب عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة وخوف تقشعر منه الجلود ، حتى أحسوا الفطرة القوية ، وتخلف الملكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أن هذا التركيب جنس من الكلام ، غير ما هم فيه) .

ويعلق المحاضر بقوله : هي نصوص يمكن أن ينطبق عليها فعلاً وصف الأستاذ شاكر من أنهم قاربوا ولم يلمسوا ، حاولوا فعلاً أن يقدموا صورة رائعة ، ولكن ضمن أساليب لا تسفر عن الحقيقة التي يتطلبها عقل الباحثين .

محاولة القدماء :

وعن منهج القدماء قال الدكتور عبد الصبور شاهين :

فيما يتعلق بالإعجاز اللغوي ركّز القدماء على

الدكتور : عبد الصبور شاهين

- أستاذ الدراسات اللغوية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة .
- بدأ دراسته بالأزهر الشريف ، وحصل على الثانوية الأزهرية .
- حصل على ليسانس دار العلوم عام (١٩٥٦م) ، وعين معيداً بالكلية عام (١٩٥٨م) وتدرج في سلك التدريس حتى أصبح أستاذاً عام (١٩٧٨م) .
- متخصص في الدراسات اللغوية داخل القراءات القرآنية ، وحولها أعد رسالتي الماجستير والدكتوراه .
- يعمل خبيراً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ورشح عضواً به .
- من مؤلفاته : القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي - في التطور اللغوي - دراسات إحصائية لجذور مفردات تاج العروس باستخدام الكومبيوتر .. العربية لغة العلوم والتقنية .
- له مجموعة من المترجمات أهمها كتب الأستاذ مالك بن نبي الستة الأول وهي (شروط النهضة ، مشكلة الثقافة ، فكرة الأفريقية الآسيوية ، وجهة العالم الإسلامي ، ميلاد مجتمع ، الظاهرة القرآنية) ترجمها عن الفرنسية ، وكتاب الدكتور محمد عبد الله دراز (دستور الأخلاق في القرآن) ، كما راجع كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيد الدين خان .

الكلمة وتكوينها ، وتاليفها في الجملة ، وعلى تاليف النظم وتعلق بعضه ببعض ، وعلى الروح التي تشيع في أجزائه فتحيلها معجزة واحدة ، على تفاوت ما بينها زماناً ومكاناً .. فمع أن القرآن قد نُجِّم في تنزيله على ثلاثة وعشرين عاماً فإنَّ اوله كآخره لا يتفاوت ولا يمكن أن يوصف بعض الكلام بانه متقدم على بعض او بعضه انقص من بعض ، وإنما هو يتنافس في الكمال ، أو يتكامل على مر التنزيل دون أن يُسبق بمرحلة نقص أو توهم نقص فقد بدا كاملاً وانتهى كاملاً .

والقدماء في هذا يتابعون وجوداً فنياً : فاللفظ يتواءم مع اللفظ ، والكلمة تأخذ بعناق أختها ، والجملة تساوي الجملة ، والإيقاع متوافر سواء أكان إيقاعاً موسيقياً أم كان إيقاعاً داخلياً .

كما تابع القدماء دراسة الفواصل ، والفواصل جرس موسيقي رائع تميز به القرآن ومثَّل لذلك بسورة مريم .

اما المحدثون فقد توفرت بحوثهم على الإيقاع ومثل لذلك بما كتبه الأستاذ سيد قطب رحمه الله .

معانٍ جديدة لألفاظ قديمة :

ويطرح المحاضر الموضوع الأساسي لمحاضرته فيقول : إن هذا كله - راي القدماء والمحدثين - يعتبر فعلاً لغوياً ، لكنه يغفل جانباً آخر لم يتعرض له أحد وأقول : لم يتعرض له أحدٌ - بالتنكير على سبيل الاستقصاء - : فاللغة لفظ ومعنى ، وقد كان القدماء يقولون : إن المعاني ملقاة في الطريق ، وإنما يتفاضل البلغاء باختيار الالفاظ ، فإذا تابعنا هذه القضية التي وضعت عنواناً على البلاغة العربية فسنجد انها لا تَصْدُق فيما يتعلق بالقرآن ، يأتي القرآن بالفاظ مأنوسة يستعملها كل الناس في معانٍ لا يعرفها الناس ، ولا يتطرقون إليها ولا تقع في تصوراتهم .. وقد كان هذا فعلاً هو الجانب المحيِّر للذين يعارضون القرآن .. وربما كانت كلمة سحر تعبيراً عن تلك العملية الهائلة التي أحدثها القرآن في صميم اللغة العربية فقلبها راساً على عقب : فلا يستعمل اللفظ القرآني في معنى جاهلي ، وإنما يأتي اللفظ القرآني بمساحة في الدَّلالة أوسع وأرحب من أي استعمال جاهلي سبق .. وهذا هو الجانب الدَّلالي الذي يعتبر من أصعب بحوث الدراسات اللغوية واشقها ويتجنبه الباحثون ، ويذهبون إلى الأصوات أو النحو أو الصرف أو المعجم أو التراكيب ، ولا يقتحمون باب الدلالة .

تغيير العقول :

ويوضح الدكتور عبد الصبور شاهين مهمة الرسول ﷺ في سبيل تغيير الواقع الجاهلي وهي تتركز في تغيير العقول فيقول :

كانت مهمة صعبة جداً لتغيير الحالة الفكرية التي تهيمن على لغة العقول وتهيمن على الألفاظ وعلى معانيها .. ولتصيير لغة التفكير لغة اخرى .. فإذا استطاع ان يغير لغة العقول لتفهّم اللغة الجديدة فإنه يكون بذلك قد صنع الجيل المسلم الذي يقوم عليه بناء الأمة والدولة والحضارة على مر التاريخ .. ومن هنا ندرك الحكمة في أن الرسول ﷺ عندما بدأ الدعوة : اقتصر على فتح مدرسة الأرقم بن ابي الأرقم ، ولم يتعرض للأوثان بالتحطيم لأنها لا تهمه ، إنما هو يريد أن يحطم الأوثان في عقول المؤمنين ، لأنه لا يتخلص المؤمن من مهابة ووجود هذه الوثنية الجاهلية بكل ركائزها وتأثيراتها بمجرد أن يقول : لا إلـه إلاَّ الله ، محمد رسول الله ، بل لا بد من استمرار التزكية والتربية والتعليم حتى يتحقق للمسلم جوهر جديد ووضع جديد ..

وأكبر معجزة حققها رسول الله ﷺ هي تخريج هذه المدرسة التي هاجرت معه إلى المدينة ذات يوم من أيام العام الثالث عشر للبعثة ، فهذه الثلة او الكوكبة من المؤمنين كانت تتكلم لغة أخرى ، وتعتنق فكراً آخر ، ومنهاجاً آخر ، وتصوراً آخر ..

التباين الدّلالي لألفاظ القرآن :

وفي سبيل إيضاح التباين الدلالي للألفاظ يستشهد المحاضر بالآيات الخمس الأول التي نزلت كل الفاظها شيئاً آخر يختلف عن معانيه الجاهلية :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١ - ٥) .

يقـــول :

﴿ اقْرَا ﴾ ليس معناها انه قدم إليه شيئاً مكتوباً ليقراه ، ولكنه طلب منه مطلباً وهو يعلم انه لا يقرا بالمفهوم الجاهلي ، ولذلك كان ردّ الرسول ﷺ : « ما انا بقارىء » إنه لا يعرف القراءة ، فيلح عليه ان يقرا ليغير لديه مفهوم القراءة - كما سيأتي بعد ذلك - إنه سوف يقرأ رسالة تتصف بأنها قول ثقيل :

﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل : ١ - ٥) .

﴿ باسم رَبّك ﴾ والرب بالمفهوم الإسلامي ليس الرب بالمفهوم الجاهلي : كانوا يرون أن لهم أرباباً من دون الله ، هي هذه الكائنات المحدودة الصورة ، فإذا بالرب لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وليس كمثله شيء ، بَدِيعُ السَّمٰوات والأرض . لا إله إلاَّ هو خالق كل شيء . هذه كلمة رب التي تتحقق في هذا الموقف بهذا المعنى الهائل الذي لم يكن يدور في خلد إنسان من أهل الجاهلية ، أو متعبد على ملل النصارى واليهود من أهل الأديان ، أُولئك الذين ثلَّثوا وألَّهوا الأشخاص وسقطت في نفوسهم مفاهيم الألوهية إلى درك نفاه القرآن وكفَّرهم من أجله .

ويربط الدكتور عبد الصبور بين ﴿ ربّك الَّذِي خَلَقَ ﴾ و ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ فخلق هنا ذات بعد ضخم جداً لأنها تتعلق بخلق الإنسان ، و ﴿ الإنســان ﴾ لفظ يفســح في أفق ووعـي المخاطب ليستوعب الإنسان منذ خلق إلى أن

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

ينتهي على هذه الأرض ، والحديث هنا عن هذا الإنسان بهذا الإطلاق يشمل ايضاً قوىٰ هذا الإنسان ، وكل منجزاته ، لأن كل شيء حققه على هذه الأرض كان موجوداً في الإنسان الأول بالقوة إلى ان تحقق بالفعل في اجيال هذا الإنسان الأول .

وعن كلمة ﴿ علق ﴾ قال : إن العلم لم يدرك حتى الآن حقيقة هذه العلقة ، وإنما يحاول ويحاول ، ويعطي عنها تصوراً ، ويحاول أن ينشر هذا التصور ، ثم يتغلغل العلم في الكشف عن اسرار اخرىٰ .. وما من سر في خلق الله إلاَّ ويستكنّ تحته اسرار واسرار .

﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء : ٨٥) .. وتظل كلمة ﴿علق﴾ ذات معنى متراحب ، عميق ، يحتوي من اسرار العلم ما تنقطع دونه اعناق العلماء ، وفي كل جيل تظهر صورة للعلم وللإدراك العلمي لهذا الوجود الإنساني .. ثم يتغير المفهوم بعد جيل آخر .. وهكذا ، يقول اليهودي (البرت إينشتين) عندما سئل : « هل يؤمن بالله » ؟ قال لسائله ما معناه : « إنَّ علم إينشتين لم يصل إلاَّ إلى قياس حبة رمل في صحراء هائلة من العلم الذي لم يعرفه البرت إينشتين » .. وهذا اعتراف يَصْدُق على علم البشرية كله ، مهما بلغ في البحوث وكشف من اسرار ، فإنَّ الله عزَّ وجل سيظل لديه العلم الكامل والمطلق وهو يفيض بقدر على هذا الإنسان .. وتتحقق الآية :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

فاقصى ما يتصوره العربي في وصف إنسان بانه اكرم العرب هو كرم حاتم الطائي الذي لم يصل كرمه إلى مستوىٰ وليمة من ولائم العصر الحديث تقدم فيها الذبائح بشكل هائل لم يتخيله حاتم الطائي قطعاً .. فإذا جاءت الآية ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ فإن حدود الأكرمية هنا لا نهاية لها ، لأن العقيدة الإيمانية لا تقتصر على اعتبارات الدنيا ، وإنما تمتد إلى الآخرة .

الموجودات في القرآن :

وانتقل المحاضر بعد ذلك إلى بعض الألفاظ القرآنية من الموجودات مثل لفظة (جنَّة) فذكر انها كانت في عرف اهل الجاهلية البستان أو الحديقة ، فإذا بالقرآن يتحدث عن الجنة بمفهوم الجاهلية ، ويتحدث عن الجنة بمفهوم الإسلام ، وبين الجنتين ما بين ذرة الرمل وكل ما في الكون من رمل .. يقول :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ﴾ (القلم : ١٧ - ١٨) ما حجم هذه الجنة ؟ هي لثلاثة او اربعة اشخاص ، .. فلم يكن احد من اهل الجاهلية يملك جنة اكبر من حائط مثلاً ، (يقال حائط او بستان ، وحائط الثقفي في الطائف هو الذي لجا إليه رسول الله ﷺ بعد ان ضربه السفهاء والغلمان) .. فالمساحة محدودة ، ولم تستعمل الجنة في لغة الجاهلية إلاَّ بهذا الحجم المحدود ..

اما في القرآن فنجد انها حجم هائل ، عرضها السَّموات والأرض ، إذن فهي غير السَّموات والارض : أُعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، لقد اتسع مفهوم الاصوات ومفهوم الكلمة إلى درجة لا يحددها إلاَّ إيمان المؤمن فقط ، عندما يتحدث القرآن عن نعيم الجنة ويقول : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (السجدة : ١٧) ، ويقول :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ (البقرة : ٢٥) ، ويقول ابن عبَّاس : (ليس في الدنيا من الجنة شيء إلاَّ الأسماء) .. فكل ما في هذه الدنيا له امثال في الجنة ، لكنها امثال في الكلمات والأسماء لأن الناس يجب ان يخاطبوا بما يفهمون ، ولو كان كل شيء يسمى بما يستحق من اسم لجاءت كل موجودات الجنة بأسماء اخرىٰ لا علاقة لها بلغة العرب .. لكن الله تبارك وتعالى شرَّف هذه اللغة بالتعبير عن هذه المعاني غير المحدودة ، الغيبية ، وتتسع الألفاظ للدلالات التي لا نهاية لها ولا حدّ لمساحتها .

مع سورة الفاتحة :

ومن الفاظ الفاتحة ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن المسلم إذا تتبعها لَمَا ركع لأنه سيتوه في معاني واغوار هذه الألفاظ : ففي جملة ﴿ الحمد لله ﴾ ما حقيقة الحمد ؟ وما مساحته ؟ فهو عند المؤمن الذاكر او عند عالم كبير او ولي من اولياء الله ، او عند نبي من انبياء الله أو محمد ﷺ يتفاوت ، حقيقة ومدلولاً .. فمع أن الكلمة معروفة عند ابسط الناس وعند اعلمهم ، ولا تتغير من لسان إلى لسان ، فإن مساحتها الدلالية من عمق الإيمان واتساع الإدراك تتفاوت .

و ﴿ رب العالمين ﴾ تطرح تساؤلاً : لماذا لم يقل العالم ؟ ولم يستطع احد ان يخبرنا ما حقيقة هذه العالمين ، ما حدود الدلالة ؟ قال بعض المفسرين : العالمون مَنْ قبلك وبعدك من ابناء آدم ، وقالوا : الإنس والجن والملائكة .. إننا نظل نكتشف وجود عالم وعالم ، ومع سعي الإنسان للفضاء فإن الله سبحانه وتعالى يقدر له هذه الرحلة ليُطلعه على شيء من قدرته وبعضٍ من اسراره الكونية .. فإذا اطَّلع الإنسان على شيء من العوالم الموجودة فلا يعني هذا انه اطَّلع على كل العوالم .. ولا يتصور المحاضر أن رسالة محمد ﷺ وهي كلمة الله الخالق التي جاء فيها للعالمين تقتصر على هذا الوجود البشري .. فلا نهاية للفظ (العالمين) في دلالته .

دعوة لدراسة الإعجاز :

ويدعو الدكتور عبد الصبور شاهين في نهاية المحاضرة إلى الكشف عن هذا الوجه من دراسة إعجاز القرآن وتسخير الجهود وتوافر العزائم وتتابع الكتابات في بحث دلالات الألفاظ قبل نزول القرآن وقياسها إلى دلالات الألفاظ ذاتها في القرآن .. ونبه ايضاً إلى عدم توافر المعجم التاريخي للغة العربية رغم توافره في اللغات الأخرىٰ ، والذي يمكن ان يوفر دراسة مقارنة للدلالات .. واشار إلى ان صمت الشعراء عندما نزل القرآن الكريم كان لانبهار اللسان العربي بالتراحب الهائل في الدلالة ، ولم يكن هضم ذلك سهلاً فلم يتمثله الشعراء إلاَّ بعد ان تغير الجو اللغوي والفطرة اللغوية والسليقة اللغوية ، وانطبعوا بالألفاظ والدلالات الجديدة ، فكان بعد ذلك فحول : المعري والمتنبي وابو تمّام ... وغيرهم .

ثم اختتم المحاضرة قائلاً :

لقد تمكن المسلمون فيما بعد من صوغ حضارتهم الإنسانية في وعاء عربي اللسان يتناقله اهل اللغات الأخرىٰ ويترجمونه عنهم ، وتأثرت اللغات الأخرىٰ بتطور العربية هذا ، فتطورت هذه اللغات وتوسعت مفاهيمها بتأثير ما ترجم إليها من علوم العربية ، ثم قفزت هي وتركت العربية في مرحلتها السابقة تشكو الآن من انها مقيدة مكبلة لا تستطيع ان تنطلق لتعبر عن حضارة العصر .. ويجب علينا مواجهة هذه المشكلة على مستوىٰ المؤسسات التعليمية وهيئات التدريس في الجامعات لأنهم هم المسؤولون الحقيقيون في تطوير اللغة العربية لتتسع لمفهوم العصر !